مقدمة

(١)

يوم ١٣ جانفي ٢٠١١م علقت المحامية بشرى بالحاج حميدة والناشطة ضمن «جمعية النساء الديمقراطيات» على آخر خطاب للرئيس المخلوع بالقول: «آنا من الناس إليّ الخطاب نعتبرو: C'est un moment historique نقولها بالفرنسوية على خاطر الفرنسوية تعبّر بالقدا»[١]. ثم أضافت: «أنا اليوم Je donne confiance à Ben Ali»[٢].

ويوم ٦ فيفيري ٢٠١٣م تم اغتيال القيادي في «الجبهة الشعبية» شكري بالعيد وأثناء تشييع جنازته يوم ٨ فيفري أصرَّ رفاقه في الجبهة على أن تخرج جنازته من «دار الثقافة» بمنطقة

(١) أنا أعتبر الخطاب لحظة تاريخية (فارقة). وأعبر عن ذلك باللغة الفرنسية؛ لأنها لغة مبينة.

(٢) أنا اليوم أثق في الرئيس بن علي.

«جبل الجلود» حيث يقيم والده بدلاً من المسجد. كما لم تُحترم أثناء عملية الدفن... الطقوس الإسلامية احتراماً واضحاً من ذلك السماح للنساء بالمشي في الجنازة... إلخ.

هذان الحدثان يلخصان بصفة واضحة وضعية العلمانيين في تونس بشقيّهم الليبرالي والماركسي، فالثقة التي منحتها المحامية بشرى بالحاج حميدة في بن علي إنما هي في الحقيقة تجديد للثقة بعدما تزعزعت بفعل بعض «الانحرافات» التي لا يتحمل مسؤوليتها. ولعل المتابعين للشأن التونسي يذكرون «رسالة» اللوم التي بعثتها جمعية النساء الديمقراطيات إلى بن علي سنة ٢٠٠٤م عبرت فيها عن قلقها من تنامي ظاهرة الحجاب في تونس ومذكرة إياه بطريقة غير مباشرة بأنه «انحرف» عن المبادىء العلمانية. أما مسألة اللغة الفرنسية المبينة فهي بالفعل تعبّر أكثر من اللغة العربية عن ولاء العلمانيين الثقافي لفرنسا «بلد الجن والملائكة» كما كتب طه حسين في روايته الشهيرة «أديب».

أمّا ما حصل أثناء جنازة شكري بالعيد فهو يكشف عن المأزق الكبير الذي يعانيه العلمانيون الماركسيون في تونس فرغم كل خطاباتهم الأخيرة (بعد الثورة خاصة) التي عبروا فيها عن احترامهم لهوية الشعب وعقيدته ورغم تخليهم عن كل الألفاظ المحيلة على الماركسية والشيوعية سقطوا في أوّل امتحان جدّي وكانت الجنازة مناسبة أثبتوا من خلالها أن كل ما قيل عن احترام هوية الشعب وعقيدته كان مجرد تكتيكات انتخابية فأن تخرج الجنازة من «دار الثقافة» عوضاً عن المسجد هي مقارنة واضحة بين «دار العلم

والمعرفة» و«دار الفكر الظلامي المتعصب»، وأن يسمح للنساء بالمشي في الجنازة هو تعبير عن تجاوز لـ«للتقاليد الدينية البالية».

(٢)

للعلمانية كما هو معلوم تعريفاتٌ كثيرة فهو مصطلح مكتظ المعاني. وفي تونس يُعبّر عن هذه الظاهرة بمفردات كثيرة: علمانية/ لائكية/ تغريبية... ويطلق على العلمانيين نعوت كثيرة: علمانيون، لائكيون، حداثيون، حزب فرنسا، كفار، ملحدون... ولما كانت ميزة المفاهيم الكبرى أنها تحكمية؛ أي: يمكن استعمالها بطرق عديدة فقد اخترنا التعريف الذي نراه يعبّر أكثر من غيره عن الواقع التونسي وهو تعريف بيتر برجي Peter Berger: «هي السيرورة التي بها تخرج قطاعات تابعة للمجتمع والثقافة عن سلطة المؤسسات والرموز الدينية»، وبالفعل فكل نشاط العلمانيين في تونس يصب في هذا الاتجاه بداية بإجراءات بورقيبة منذ فجر الاستقلال (حذف التعليم الزيتوني، إصدار مجلة الأحوال الشخصية، إصلاح التعليم...) وانتهاءً بمطالب المعارضة العلمانية بعد الثورة (الفصل بين الدين والسياسة، تحييد المساجد عن العمل السياسي، المطالبة بدولة لائكية...).

أمّا العلمانيون في تونس فهم أصناف من حيث مرجعياتهم (ليبرالية، ماركسية...) ومن حيث خطابهم (معتدلون ومتطرفون) ومن حيث أدبياتهم (بعض الأحزاب لها أدبيات معتبرة والبعض الآخر يفتقدها).

(٣)

هذا الكتاب ليس عملاً صحفياً كما لا يمكن اعتباره بحثاً أكاديمياً كامل الشروط فلست بصدد التأريخ للحركة العلمانية في تونس ولا لأحزاب المعارضة وإنما حاولت اعتماداً على ما توفر من دراسات حول بورقيبة وحول الأحزاب اليسارية تبيّن حقيقة العلاقة بين طرفين علمانيين قيل الكثير عن «صراعهما المرير». ولقد أفضى بنا البحث إلى أن ما قيل في الموضوع لا يعكس الحقيقة فالصراع السياسي الظاهر بينهما يخفي تكاملاً ثقافياً لم يستطع بعض رموز اليسار إخفاءه فقد صرّح نور الدين بن خذر (ت٢٠٠٥م) أحد أبرز الوجوه التاريخية لليسار في تونس بأنهم (اليساريون في الستينات) كانوا «الأبناء غير الشرعيين لبورقيبة.. وأنه بقمعه لهم حرم البلاد ممن كانوا سيرثون مشروعه». وقد ظهر هذا التكامل أوضح ما ظهر في الموقف من الهوية العربية الإسلامية لتونس.

ولكي أبلغ هذه «الحقيقة» ارتأيت أن يكون الكتاب على النحو التالي:

ـ فصل أول بعنوان: «الخارطة العلمانية في تونس» عرضت فيه نبذة عن الأحزاب العلمانية في تونس وكذا نماذج من المثقفين العلمانيين وسيلاحظ القارىء عدم توازن في عرض الأحزاب وذلك مرتبط بالأحزاب نفسها (أحزاب عريقة وأخرى نشأت قبيل الثورة) وبمدى توفر المادة التوثيقية. وسيلاحظ كذلك، وعلى

مدى الكتاب ندرة الإشارات إلى «علمانية بن علي» مقارنة ببورقيبة والأمر مرتبط من ناحية بغياب شبه تام للدراسات حول فترة بن علي ومن ناحية ثانية بكون بن علي كان بلا إيديولوجيا فقد كان زعيم عصابة مافيوزية.

ـ فصل ثان بعنوان: «الهوية في قلب الصراع» وقد حرصت فيه على عرض نقاط التلاقي ونقاط الاختلاف بين مختلف مكونات المشهد العلماني في تونس بخصوص موضوع الهوية (الإسلام والعروبة) فبقدر ما كان «الجماعة» متفقين في المسألة الدينية اختلفوا في موضوع العروبة.

ـ فصل ثالث بعنوان: «سياسة الاندساس Entrisme في مواجهة إيديولوجيا الوحدة القومية». وقد خصصته لبيان أدوات الصراع بين الأطراف العلمانية فلئن عمد بروقيبة وخلفه بن علي إلى إيديولوجيا الوحدة الوطنية وإلى القمع لمواجهة اليساريين فقد تراوحت أدوات اليسار بين المساندة النقدية والمواجهة وسياسة االاندساس (الاندساس داخل المنظمات والجمعيات ومن ثمة استغلالها كواجهة للعمل الحزبي والسياسي والثقافي... إلخ).

ـ فصل رابع بعنوان: «البورقيبية واليسار: صراع أم تكامل» ويمثل خلاصة البحث التي أشرنا إليها آنفا.

(٤)

هذا الكتاب ليس مجرد بحث متواضع بل هو بمعنى ما جزء من ذاكرتي ومن سيرتي الذاتية ـ الإيديولوجية. لقد جئت إلى هذه

الحياة سنة ١٩٦٣هـ؛ أي: بعد بضعة أشهر من إعدام الشيخ أحمد بن محمود الرحموني من قبل نظام بورقيبة بتهمة التآمر على أمن الدولة. وكان الشيخ الجليل قد أسس فرعاً للتعليم الزيتوني بمدينة تالة. وقام في بدايات الاستقلال بحملة لجمع تبرعات لبناء المدارس في الأرياف ومنها مدرسة «الحوافظ» التي زاولت فيها تعليمي الابتدائي ثم حوّلها بن علي في ما بعد إلى ثكنة عسكرية (يا لسخرية الأقدار!). وما زالت ذاكرتي تحتفظ بصور البؤس والفقر في أواخر الستينات بـ«فضل» اشتراكية بورقيبة التي دفعت والدي إلى أن يبيع رزقه بأبخس الأثمان = شأنه في ذلك شأن كل صغار الفلاحين انتظاراً للجنة الموعودة. في السبعينات انتقلت للدراسة بمدينة تالة وهناك جلست أمام أساتذتي «اليساريين العلمانيين» وتعلمت منهم الكثير. وهناك أيضاً جلست إلى «علي العيداني» أستاذ اللغة الفرنسية الذي اطلعت بفضله على جزء هام من الأدب الفرنسي العظيم. وفي الثمانينات دخلت الجامعة وعايشت الرفاق الماركسيين لمدة أربع سنوات كاملة. ثم ناضلت «معهم» بعد التخرج صلب النقابة في التعليم الثانوي ثم العالي وكنت ممن شارك في الإضراب الإداري الذي شنه أساتذة التعليم العالي سنة ٢٠٠٥م لأول مرة في تاريخ الجامعة (الامتناع عن إصلاح امتحانات الطلبة).